أحمد النميشي

من تراثنـــا الحديث

« تاريخ الشعر والشعراء بفاس »
(الجزء الأول)

ما نعرفه عن الشاعر المغربي أحمد النميشي ضئيل، لا يتجاوز تعريفين : أهمهما في كتاب « الأدب العربي في المغرب الأقصى » لمحمد بن العباس القباج (راجع العدد 14 من « الثقافة الجديدة »)، يشغل صفحتين (76 ــ 77) وثلاثة أسطر من صفحة ثالثة (78)، مرفقاً بصورة الشاعر، ويشير فيه القباج الى أن أحمد النميشي ولد في أواخر 1308 هـ (حوالي 1889) بفاس، وكان من بين المطالبين بتنظيم القرويين على غرار ما حصل في الأزهر والزيتونة، والمعضدين لتنفيذه. اشتغل بالتدريس في القرويين، وعُيّن فيما بعد على أحباس المساكين بفاس. هجر الشعر في أواخر العشرينيات، وتفرغ للنثر، وكان ينشر بانتظام في جريدة « السعادة ».

وثاني التعريفين ورد في كتاب « الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية » (ص 264) للدكتور ابراهيم السولامي، وأهم ما يتضمنه وفاة النميشي سنة 1964 بفاس، على أن د. السولامي أخطأ في عنوان المحاضرة، اذ حصره في « الشعر والشعراء بفاس »، فيما هو « تاريخ الشعر والشعراء بفاس »، ولا أدري مصدر هذا الخطإ.

تكتسي هذه المحاضرة، التي ألقاها الشاعر أحمد النميشي سنة 1924 بفاس، وطبعت في السنة ذاتها، أهمية فائقة، لأنها ربما كانت أول رصد لتاريخ الشعر المغربي، المكتوب باللغة العربية. والاشارة الى أسبقيتها واضحة في بداية المحاضرة. إلّا أنها، إضافة إلى قيمتها التاريخية، تكاد تحدد القالب العام الذي سيرتبط عليه جل الدراسات اللاحقة التي أرخت للشعر المغربي القديم، أو تناولته بالدرس والتحليل، وحتى التي اختارت موقفاً مضاداً، تعنى فيه بقراءة تقدمية لم تنج من المسار العام الذي طبع محاضرة النميشي. رغم أنها اجتهدت في رؤيتها السياسية لمحاولة مغادرة القراءة « السائدة ».

وتخصيص النميشي مدينة فاس في محاضرته ذو دلالة وطنية أبعد من أن تكون محلية، ففي عهد الاستعمار انتشر التأليف عن دور المدن في ارساء الحضارة المغربية ــ العربية عبر التاريخ، كرد مباشر أو غير مباشر على الاستعمار الذي ارتكز في محاربته للوطنيين المغاربة على أن المغرب لم يكن يشكل دولة، ولم يتمتع بحضارة، فجاء هذا المستوى من الرد ليؤكد وجود حضارة مغربية تأتلف وتتجاوب فيها أطراف الوطن، ومن ثم فإن الحديث عن فاس، أو تطوان، أو الصويرة، أو مراكش، هو عمقياً برهنة بالملموس على رسوخ الحضارة المغربية.

لا أبتغي هنا تحليل هذه المحاضرة، ولا إخضاعها للنقد. الاهم الان هو التعرف عليها، بعد أن نسيها البعض، أو تعذر على البعض الآخر الحصول عليها. وقد اكتفيت، قبل كل شيء، بتصويب أخطائها المطبعية، مع المحافظة على بعض القواعد الاملائية التي كانت آنذاك منتشرة في المغرب، باستثناء تنقيط الفاء والقاف، واثبات الهمزة في بعض المواقع، مع الاشارة إليه في الهوامش.

محمد بنيس

تاريخ الشعر والشعراء بفاس

وهي المسامرة التي ألقاها الشريف الفقيه العلامة الأديب : **سيدي أحمد التميثي** :
بنادي المسامرات من المدرسة الثانوية بفاس
مساء يوم الأربعاء 19 جمادي الأولى عام 1343 موافق 17 ديسمبر سنة 1924.

طبعت بفاس متم شعبان عام 1343 بمطبعة أندري

حَمْداً لمن جعل الآداب حلية للنفوس وزينة، وتوج به مفارق من اتخذه سميره وخدينه، وصلاة وسلاما على سيدنا محمد قدوة الأمة القائل : ان من الشعر لحكمة، وعاله وصحابته الذين كانوا بآدابه متاديين، وبنجم هداه مقتدين.

أما بعد، أيها السادات، ان أول ما يجب على مسامركم أن يقدمه بين يدي نجواه، وأكد ما يستلفت إليه أنظاركم الكريمة قبل النطق بخطابه، وفهمكم لفحواه، هو اعترافه أمامكم بقصر باعه، وقلة اطلاعه، وخمود فكرته، ونضوب رويته، وعدم احسانه للسباحة في لجج ذلك البحر الزاخر، وعطل جيدة من حلى تلك المفاخر، ولم ارتق هذه المنصة لأعلمكم ما تجهلون، أو أنبيكم بما لا تعلمون، لأن الغاية التي أسعى اليها هي التي سعى وراءها المسامرون قبلي، وهي التي أسس لأجلها هذا النادي الفسيح.

كانت الأمم التي تنشد التقدم وتتعشق الرقي، ولن تزال، ساعية بجد واجتهاد في سبيل التحصيل على أمنيتها المنشودة طارقة كل باب من الأبواب للتوصل إلى اعلاء شأنها وتثقيف مدارك ابنائها[1] واظهار تفوقها على سائر الأمم في ذلك، وانها السابقة الى احراز قصبات السبق في تلك الميادين.

تتزاحم مصالح الأمم وتتباين أغراضها، وتختلف ارادتها، طبق طبائع البشر التي قضى مدبر الأكوان واقتضت حكمته ان تنحو منحى الاختلاف، وان يكون لِكلٍّ شرعة ومنهاج، ولكنها اتفقت على نقطة واحدة : وهي وجوب التحلي بحلية المعارف والآداب، وانفاق كل غال ورخيص في سبيل انتشارها بين الأمصار والقرى، وتعميمها بين الأفراد.

تتنوع العلوم والمعارف الى أنواع، وتنقسم الى مقدمات ومقاصد، وكلٌّ من معاني تلك العلوم بقسميها مفتقرة الى ألفاظ تؤديها، وقوالب تصاغ بها على حسب مقتضيات الأحوال، وذلك ما يعنون عليه بعلم اللغة.

ولا يجهل أحدٌ ما للأمم الحية الراقية من الشغف بلغاتها، والذب عنها، والسعي الحثيث في إيصالها الى مستوى الإكبار والإعجاب، والباسها حلل التحسينات الملائمة لترقية العصور، والتي تجملها في أعين عشاقها المغرمين بها.

ما ترقَّتْ أمةٌ من الأمم، ولا ضرب لها بسهم في الحياة الا بمحافظتها على لغتها، وصونها من أن تعبث بها يد عابث، أو يشير لها مُشيرٌ ببنان احتقار. هذا شأن الأمم كلها منذ علَّم الله آدم الأسماء، وناهيك بما وصلت اليه مرتبة اعتبار اللغة من النفوس ان دولة الموحدين التي حكمت هذا القطر المغربي مائة عام وتيفاً وخمسين عاما، وهي من اشهر الدول الاسلامية، لم تسمح نفوس ملوكها بنبذ لغتهم البربرية والانتقال عنها الى اللغة العربية لغة دينهم ومتهم، حتى إن ابن أبي زرع حكى في كتابه القرطاس أنهم لما دخلوا فاساً عزلوا[2] خطيب القرويين، الفقيه الصالح الورع أبا محمد مهدي بن عيسى، وكان من أفصح الناس لسانا، وأكثرهم بيانا، وقدموا مكانه أبا الحسن ابن عطية، لأجل حفظه للغة[3] البربرية، قال : لأنهم كانوا لا يقدمون للخطابة إلا من يحفظ اللسان البربري. والمطلعون على تاريخ الدولة التركية، وهي الخامية حمى الاسلام، يعلمون مبلغ اعتنائها بلغتها، وجعلها اللغة الاجبارية في المدارس، وسائر الدواوين الرسمية، وما كان قبضها على زمام الخلافة الاسلامية ولا خدمتها للحرمين الشريفين بالذي يذهلها عن لغة الآباء والأجداد.

هذان مثالان من أمثلة تحافظ أمتين شرقيتين على لغتهما، أما الدول الغربية فقد علم مبلغ تحافظهم على لغتهم واستماتتهم في الذب عنها الى حد تضحية أنفسهم قبل تضحيتها، وأكبر مثال على ذلك الالزاسيون، فقد مكثوا نصف قرن تحت نير الحكم الألماني القاسي وذاقوا من أليم عذاب الاستبداد ألوانا، وما كان بينهم وبين النجاة من ذلك العذاب إلَّا نبذهم للغتهم الحية[4] وتجسسهم بجنسية الأمة الحاكمة فيهم، ولاكنهم ما فعلوا ذلك، ولا تفعله أمة تقرأ آيات مجدها التليد، في صحائف تاريخها المجيد.

وإذا كان هذا أيها السادات، مبلغ اعتناء القوم بلغاتهم، وكانت محافظتهم عليها انما هي لحفظ شرفهم ومنزلتهم بين الأمم والشعوب، فكيف يكون حال من يَدْعُوه الدينُ الى المحافظة على لغته، زيادة على تلك الاعتبارات الأخرى، وهو حال الناطقين بالضاد، الذين بعث اليهم نبي عربي في بلاد عربية بلسان عربي، وأنزل عليه من فوق سبع سماوات كتاب عربي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لعمري ان العرب، قبل الاسلام وبعده بقليل، حافظوا على لغتهم وانزلوها من نفوسهم اسمى المنازل، وما كان سوق عكاظ، وحج الوفود اليه من كل الأصقاع النائية[5] لا لأجل الذب عن اللغة، وفي سبيل مصلحتها. وما كانت لغة القرآن العزيز المادة بالتي تضيق وسعا عن سائر هذه المخترعات التي أصبح اعداؤها يتمشدقون بأن صدرها الرحيب لا يسعها، ليس الذنب على اللغة التي وسِعَتْ كتاب الله ولكن الذنب محمول على عاتق أهلها الذين فرطوا فيها كأنهم لم يعلموا أن التفريط فيها تفريط في المجد والدين.

نعم، حوادث الدهر قد علمت المسلمين كيف يدأبون لتدارك الدِّمَاء[6] الباقي من لغتهم التي كانت ان يقضي عليها الاهمال، فهب إخواننا المصريون، ومَدُّوا لَنَا يد المعالجة، سواء بعقد المؤتمرات اللغوية العظيمة، أو بكتاباتهم المنهجة التي أَحْيَتْ شبابها واعادت لها رونقها القديم. وانه ليحسن بي أن اتلو على مسامعكم الكريمة نص القصيدة العصماء التي جادت بها فكرة أمير الشعراء حافظ ابراهيم المصري الشهير على لسان اللغة العربية الأسيفة حالة احتضارها، وهي :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ؛ ونديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب وليتني عقمت فلم أجزع لقول عداتي
ولدت ولما لم أجد لعرائسي رجالا وأكفاء وأدت بناتي
وسعت كتاب الله لفظا وغاية وما ضقت عن آيات به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن[7] فهل سألوا[8] الغواص عن صدفاتي
فيا وبحكم أبلى وتبلى محاسني ومنكم وان عز الدواء أساتي
فلا تكلوني للزمان فإنني أخاف عليكم أن تحين وفاتي
أرى لرجال الغرب عزاً ومنعة وكم عز أقوام بعز لغات

أتوا أهلهم بالمعجزات تفننا ... فيا ليتكم تأتون بالكلمات
ايطربكم من جانب الغرب ناعب ... ينادي بوادي في ربيع حياتي
ولو تزجرون الطير يوما علمتم ... بما تحته من عثرة وشتات
سقى الله في بطن الجزيرة أعظما ... يعز عليها أن تلين قناتي
حفظن ودادي في البلا وحفظته ... لهن بقلب دائم الحسرات
وفاخرت أهل الغرب والشرقُ مطرق ... حياء بتلك الأعظم النخرات
أرى كل يوم بالجرائد مزلقا ... من القبر يدنيني بغير اناة
واسمع للكتاب في مصر ضجة ... فأعلم أن الصائحين نُعاتي
ايهجرني قومي عفا الله عنهم ... الى لغة لم تتصل بروات
سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى ... لعاب الأفاعي في مسيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة ... مشاكلة الألوان مختلفات
الى معشر الكتاب والجمع حافل ... بسطت رجائي بعد بسط شكاتي
فأما حياة تبعث الميت في البلا ... وتثبت في تلك الرموس رفاتي
واما ممات لا قيامة بعده ... ممات لعمري لم يقس بمماتي[6]

وقد أتيت بهذه الدرر الفريدة أثناء خطابي لتكون كبراعة تخلص للمقصود الذي جعلته موضوع مسامرتي اليوم، وهو تاريخ الشعر والشعراء بفاس، منذ أسست الى يومنا هذا.

وقد اخترت هذا الموضوع الذي يتوقف على ملكة واسعة، واطلاع نادر، وحفظ عظيم، وان كنت خامد الفكرة، جامد القطنة، لا أصون فائدة، ولا أعقل شاردة، إلا أنه جرَّأني من الأفاضل امثالكم الأعضاء وتشجيع من هو على شاكلتي ممن عميتُ عليهم الانباء.

وها هنا قبل ولوجي لأبواب المقصود، يجب علي أن أقدم خالص تشكراتي لسعادة الشريف العلامة الأستاذ مولاي عبد الحي الكتاني، إذ من روض خزانته البديعة اجتنيت زهر هذه المسامرة، وانتقطت دررها، ناهيك خزانة أمنت ان يصير وترها شفعا، وان يطمع احد في تصيير مفردها جمعا، بل صارت كعبة تحج لها الوفود من كل ناحية، ويقصدها سوانح الأجانب من الجهات النائية[10]، فيبهرهم ما يرون فيها من الذخائر، ويروقهم ما يبصرون بها من كل نفس فاخر.

ولئن عنان القلم للرجوع الى المقصود، فنقول : تقدمت الاشارةُ الى أنني جعلت موضوع هذه المسامرة تاريخ الشعر والشعراء بهذه العاصمة الفاسية واضبت الكلام في افتقار حياة الأمم الى حفظ لغاتها وبينت انه كان للأمة العربية القدح المعلى في ذلك، وقاتني هناك أن أذكر أن العرب انما حفظت لغتهم بالشعر الذي سمت منزلته في نفوسهم فبه كان فخارهم وافتخارهم. وينسُج بروده الضافية كان سموهم وارتقاؤهم[11]، حتى ان القبيلة التي ينبغ فيها الشاعر كانت تأتيها وفود القبائل لتهنيئها[12] وكم رفع الشعر ضدهم من قوم ووضع آخرين. ولما طلع فجر الاسلام وحظر على العرب أمورا عديدة من أمور الجاهلية لا يسعها صدر الدين الحنيف ولا تتفق مع مبادئه، لم يكن من جملتها قرض الشعر ولا انشاده، ولم يقف الأمر عند ذلك الحد، بل تعداه الى ترغيب النبي عليه السلام للناس في تشييد مبانيه، واجادة معانيه، آونة بالاطناب، في مدْحه[13] وأخرى باجازة المجيد فيه بأعزّ ما لَدَيْه ونفسه، وقد سارت الأمم الاسلامية على ذلك الخط المستقيم، فاينعت رياض الأدب في مدينة الرسول عليه السلام زمن الخلفاء الراشدين، وفي بغداد والشام عصر الأمويين والعباسيين، وبعدهما في ربوع الأندلس التي أقام فيها بَنُو أمية دولة ثانية، بعدما كسفت شموس مجدهم[14] في الشرق. ولست في حاجة الى شرح ما بلغته منزلة الشعر في ذلك العصر الزاهر، الذي لا زال المسلمون يبكون عليه، ويتحسرون.

ومن أراد الاطلاع على مبلغ تَرَقِّي[15] الأفكار في ذلك الوقت فعليه ان يقلب صفحة من صفحات نفح الطيب، للعلامة المقري، فيرى من آيات التفنن والابداع ما يثير سخطه على تلك الحكومة المشومة التي نسخت ضياءه بظلام.

أما المغرب الأقصى، وفي مقدمته عاصمته التي هي موضوع بحثنا، فيسوءني ان افاجئكم[16] بأن نهضته الأدبية تأخرت مئات من السنين، وذلك ان هذا القطر، كما لا يخفى عليكم، كان يملؤه متوحشو البرابرة لا غير، ولم تتوجه اليه عناية الخلفاء في أول الفتح الاسلامي لصعوبة المواصلات اذ ذاك، زيادة على بعد الشقة، وكان أول من وطئه من جيوش المسلمين عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه سنة 62 من الهجرة، ثم صار الخلفاء من بني أمية وبني العباس، يوجهون من قبلهم نُواباً الى افريقية تاركين لهم ادارة شؤونها[17]، والمسالك كلها في ذلك الوقت تابعة للخلافة، الى أن كانت واقعة فخ الشهيرة التي حضرها المولى ادريس بن عبد الله، وفر منها الى المغرب، وكان من أمر تدوجه والاستيلاء عليه ما هو معلوم لديكم، وقام بعده ولده مولانا ادريس، سمي والده رضي الله عنه، فأسس هذه العاصمة واتخذها دار ملكه وذلك سنة 192.

ومع توطيد قدمه في المغرب، وانقطاع دعوة الخلافة العباسية منه، لم يزل مترقبا حركات الخلفاء وعمالهم الذين ما فتؤا[18] يدبرون له المكائد[19]، حتى وافته منيته سنة 213، فأورث الملك بنيه الذين لم يذوقوا طعم السلم، ولا استراحوا من أُمّ الشحناء التي حدثت بينهم، حتى انقض عليهم عقاب العبيديين أولا — ثم آل أبي العافية ثانيا — فدافعوا عن ملكهم ما شاء الله، ثم اختلسته[20] منهم الليالي، ونفذ فيهم القضاء المبرم، وكانت سنة 375 خاتمة عمر دولتهم التي دامت 203. وقامت على انقاضها دولة زناتة، من مغراوة، وبني يفرن، فكانت ايامهم كلها حروبا ووقائع، ودالت دولتهم بالمملكة المسنونة المزعجة فكانت مبادىء ايامهم كلها حروبا لتوطيد دعائم ملكهم وتدويخ بلاد المغرب. ولمّا تمّ لهم نصاب الملك وجهوا[21] همتهم الى الفتح والجهاد، فكانت لهم الوقائع المشهورة بربوع الأندلس التي انتهز الاسبانيون فرصة الاستيلاء عليها، وما طاب لهم العيش وراق، حتى ظهرت دولة الموحدين في الميدان، فعجلت بقطف ثمار أيامهم، ولم تمض إلا مدة يسيرة حتى سكنوا الديار، وطاب لهم فيها القرار.

وهذه الدولة الموحدية هي التي انهضت جواد الأدب من كبوته، وأقالته من عثرته، وبظهورها أوائل المائة السادسة يبتدىء تاريخ الأدب والشعر بالمغرب، لأن الدول التي تقدمتها كانت في شغل شاغل، وفي حروب مهولة تشيب لها الولدان، فلم يكن لها متسع من الوقت لتشتغل فيه بالعلوم والآداب.

ولا تظنون أيها السادات أنني مجازف فيما قلته من أن أسواق الأدب لم تفتح أبوابها إلا بعد بزوغ هلال الدولة الموحدية، فالتاريخ شاهد عدل، ولا محيد لي عن استشهاده في هذا المقام. واليكم لمحة يسيرة من رسالة أبي الوليد اسماعيل بن محمد الشقندي، التي وضعها في تفضيل القطر الأندلسي على مغربنا المعبر عنه اذ ذاك ببر العدوة، ونص ما قال مما له مساس بموضوعنا يخاطب صاحبه الذي كان جاذبه ويدعي افضلية بر العدوة. وبالله ألا سميت لي بمن تفخرون قبل هذه الدولة المهدية ايسقمرت الحاجب، أم بصباح البرغواطي، أم بيوسف ابن تاشفين، الذي لولا توسط ابن عباد لشعراء الأندلس في مدحه ما أجْرَوْا له ذِكْرًا ولا رفعوا ملكه قدرا[22]. وبعدما ذكروه بوساطة المعتمد قال له وقد انشدوه : أيعلم أمير المسلمين ما قالوه، قال لا أعلم، ولاكنهم يطلبون الخبز[23]. وقد استغرقت هذه الرسالة تسع ورقات من النفح للعلامة المقري.

ولما كان مفتاح هذه الدولة الموحدية، وهو المهدي بن تومرت، حال في الأرض، ورحل الى المشرق، وتلقى به علومه وآدابه ومعارفه، وكان شاعرا مجيداً فبالضرورة ترسمت الناس آثاره، وتتبعوا خُطاه، إذ الناس على دين ملوكهم.

ومع اشتغاله بتأسيس دولته، وحروبه مع المرابطين، كان يصبو[24] الى الأدب انشداداً وانشاء، فمن شعره، قوله

أخذتَ[20] بأعضادهم إذ نأوا وخلَّفك القـومُ إذ ودَّعـوا[21]
فكم أنت تُنهى ولا تنتهي وتُسْمَعُ وعظـاً ولا تسْمَـعُ
فيا حجَرَ الشَّحْذِ حتَّى متى تَسِنُّ الحديـد ولا تقطَـعُ

ثم مات المهدي، وخلفه عبد المومن بن علي الذي كان على صرامته محباً لأهل العلم والأدب، مكرماً لوفادتهم، منفقاً ليضاعتهم، حتى ان العماد الاصبهاني ذكر في كتابه الخريدة ان الفقيه ابا عبد الله محمد بن أبي العباس التيفاشي لما انشده ماهزَّ عطفَيْه بين البيض والأسَل منل الخليفة عبد المومن بن علي . اشار عليه بان يقتصر على هذا البيت، وأمر له بألف دينار. على انه كان يقرض الشعر بنفسه وجيد، وقد جرت بينه وبين وزيره الأديب الشهير أبي جعفر ابن عطية مساجلات، مها انهما كانا ماربن ببعض طرق مراكش، فأطلت جارية بارعة الجمال من شباك، فقال عبد المومن :

قَدَّت فُؤادي من الشُّبَّاك إذْ نظرت

فقال الوزير مجيزا

حَوْراءُ تَرْنُوا إلى العُشَّاق بالمُقَل

فقال عبد المومن

كأنَّما لَحْظُها في قلب عاشِقِها

فقال الوزير

سَيْفُ المُؤَيَّد عبد المومن بن علي

ولو لم يكن من المفاخر في هذه الدولة إلا هذا الوزير الذي طلع في سماء الأدب بَدْراً وارْتفع فوق السماءين قدراً لكفى.

وأصل هذا الوزير من طرطوشة، وكان والده احمد بن عطية كاتبا في دولة علي بن يوسف اللمتوني، ثم في دولة ابنه تاشفين من بعده، ولما انقضت أيام اللمتونيين، وظفر به عبد المومن استحياه أولا، ثم قتله أخيراً حين استشق منه رائحة الغدر.

أما والده أبو جعفر فقد ساعده الحظ حتى استوزره عبد المومن، ونال من المكانة عنده ما لم ينله أحد في دولته، ثم تغير عليه لأسباب يطول شرحها، فكتب[28] نكتة شنعاء ولم ينفعه حداً ولا تراء، وفي محبسه صدرت منه من اللطائف الأدبية نثراً ونظماً ما يدل على سامي مكانته، فمن ذلك قوله :

عَطْفاً علينا أمير المؤمنين فقَد بان العزاء لفرط البث والحزن
قد أغرقتنا ذنوبٌ كُلُّها لُجَجٌ ورحمة منكم أنجى من السُّفُن

الى ان قال :

ونحن من بعض من أحببت مكارمكم كلنا الحياتين من نفسي ومن بدن
وصبيةٌ كصغار النَّوْرِ من صغرٍ لم يألفوا النوح في فرخ ولا فنن
قد أوجدتْهُم أيادٍ منك سابقةٌ وانْكُلَّ لولاك لم يوجد ولم يكن

ومن شعره ايضا في محنته

أنوح على نفسي أم انتظر الصَّفْحا فقد آن أن تنسى الذنوب وأن تمحى
فها أنا في ليل من السُّخط حائرٌ ولا أهتدي حتَّى أرى نَرْضى صُبحا

ومن الأدباء الذين افتخرت بهم دولته، حامل راية الانشاء والقريض، الفتح ابن خاقان، صاحب القلائد، وتجرد الاطلاع على هذا الكتاب تعرف منزلة الرجل في عالم الأدب.

ولما دخل عبد المومن في خبر كان، وجلس على اريكة الملك ولده يوسف، جرى على سنن سلفه من حب الأدب وتنشيطه، رغماً عن كونه كان يميل للفلسفة والحكمة اكثر من ميله لباقي العلوم.

ومن الشعراء الذين كان لهم تمام الظهور في عصره الأديب أبو العباس احمد بن عبد السلام الكرواني[29] نسبة لقبيلة كروان الشهيرة وقد كان يجالس أباه عبد المومن ويجالس ولده يعقوب من بعده.

ومن النوادر التي وقعت له معه، ودلت على شدة حلم يوسف، انه حضر يوما هو والطبيب سعيد الغماري ببابه، فسأل يوسف عمن بالباب، فلما أُخبر بهما قال : من عجيب الدنيا، شاعر من كروان، وطبيب من غمارة، فبلغ ذلك للكرواني، فقال : وضرب لنا مثلا ونسي خلقه، اعجب منهما والله خليفة من كومية، فقال يوسف لما بلغته مقالته، اعاقبه بالعفو عنه. ومن شعر أبي العباس المذكور في مدحه من قصيدة :

إن الإمام هو الطبيب فقد شفا ... عِللَ البريَّة ظاهراً ودخيلا
حمل البسيطة وهي تحملُ شخصهُ ... كالرُّوح يُوجدُ حاملاً محمولا

ومن الشعراء الذين نبغوا في أيامه، محمد بن غالب الرصافي وهو أحد الشعراء في ذلك الوقت الذين لم ينتجعوا احدا بقافية، بل كان جل شعره مقصورا على وصف حنينه الى وطنه، وغير ذلك، ومن بديع شعره قوله :

ومُهفْهفٍ كالغُصن إلّا أنّـه ... سلب التثنّي النّوم عن أجفانه
أضْحى ينام وقد تحبّب خدُّه ... عرقاً فقلت الوردُ رُشّ بمائه

ولما لبى يوسف داعي الله، وحل محله ولده يعقوب، سار على مهيع والده وجده، فاحب العلماء، وقرب الأدباء، واصغى الى المدح وأثاب عليه. فمن الشعراء الذين كانوا يجودون لكعبته، أبو بكر يحيى بن مجبر الشاعر المشهور، ومن آثاره الخالدة القطعة الشعرية في وصف المقصورة التي احدثها يعقوب المذكر بمسجده من حاضرة مراكش، وكانت قد وضعت على قواعد هندسية. بحيث ترتفع بخروجه وتنخفض لدخوله وهي

طَوراً حينا عنهُـمُ محبسودة[30] ... فكأنّهـــا سرٌ من الأسرار
وكأنها علمت مقادير الورى ... فتصرّفت لهم على مقـــدار
فإذا احسّت بالإمام يزُورهـا ... في قومه قامت إلى الزُّوّار
يبدو[32] فتبدو[31] ثم تخفى بعده ... كتكـــوُّد الهالات للأقمـــار

فطرب المنصور لسماعها وارتاح لاختراعها.

ومن النابغين بدولته أيضا، ابن عمه أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المومن بن علي، له شهرة طائرة في عالم الأدب، وقصائد طنانة في مدح يعقوب. من شعره، وقد كان هجره يعقوب ووافق ان وفد على بابه جمع من العرب بالمشرق وأذِنُوا بالدخول عليه فكتب الى يعقوب:

ياكعْبة الجُود التي حجّت لها ... عُرب الشّآم وغزّها والدّيلم
طوفي لمن أمْسى يطوف بها غدا ... ويحُلّ بالبيـــت الحرام ويحرُمُ
ومن العجائب ان يفوز بنظرةٍ ... من بالشّآم ومن بمكّة يُحْرم

وحسبك دليلا على النهضة الأدبية التي كانت أيام هذا الملك انه لما رجع من غزاة الاراكة المشهورة سنة 591، ورد الشعراء من كل ناحية، فكان كل واحد منهم ينشد من قصيدته بيتا أو بيتين لكثرتها، حتى إن رقاعها لما وضعت قدامه حالت بينه وبين من كان أمامه.

ولما مات المنصور، خلفه ولده الناصر، وكان فظاً غليظ الحجاب، فلذلك لم أقف له على آثار أدبية، كمن بعده من باقي ملوك هذه الدولة، إلّا ما نَدَر، لأنه بموت المنصور نكست رايات مجدهم، وصارت الأيام تستردُّ منهم ما وهبتهم، الى أن انقضت مدتهم وانطفأت جذوتهم.

فقامت من ورائهم دولة بني مرين، وآساد ذلك العرين، فكان همُّ الملوك الأوّلين من تلك الدولة توطيد دعائم الملك، وتمتين أساسه، فشغلهم ذلك عن تعمير أسواق الأدب.

ولما افضى الأمر الى السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق منهم، هذب الملك واكسبه رونق الحضارة. فمن الشعراء الذين تربوا في حظيرته أبو العباس احمد بن علي المليائي، ومن شعره يفتخر فعلة تركها، كما قال ابن الخطيب في الاكليل، شنعاء على الأيام، وعاراً في الأقاليم على حملة الأقلام :

العزُّ ما ضُربت عليه قبائي ... والفضل ما اشتملت عليه ثيابي
والزُّهر ما أهداه غُصن يراعتي ... والمسك ما أبداه نفس كتابي
فالمجد يمنع أن يُراحم موردي ... والعزم يأبى أن يُضام جنابي
فإذا بلـوت صنيعـة جازيتها ... بجميل شكري أو جزيل ثوابي
وإذا عقـدت مودَّة أجريتها ... مجرى طعامي من دمي وشرابي
وإذا طلبت من الفراقد والسُّهى ... تأراً فأوشك أن أنالَ طلابي

والفعلة التي اشرنا اليها، هي احتياله على تزوير كتاب عن الأمير يوسف لولده يعقوب في قتل بعض الأعيان كانوا بسجنه من مراكش. ومن شعرائه مالك بن المرحل الذي ستأتي لنا ترجمته.

ومضت فترة من الزمان بين موت يوسف وولاية أبي الحسن الشهير، تخللتها فتن أوجبها التنافس على الملك. ولما استوثق الأمر لأبي الحسن، وصفت مشارب أيامه، رد الوجهة الى ترقية الآداب، فكانت جل أيامه مواسم واعياداً وكان يقرض الشعر ويجيده، وسيأتي لنا شعره في ترجمته.

ومن الشعراء الذين ازهرت بهم أيامه، أحمد بن محمد بن شعيب الجزنائي، كانت له عناية بالعلوم الفلسفية، وتهتك في علم الكيمياء، وكانت له جارية اسمها صبح، أدَّبَها واحسن تأديبها، ولما ماتت لم يرزق صبرا عليها، فكانت غالب أشعاره في رثائها. ومن مراثيه فيها قوله :

ياصاحب القبر الذي أعلامُه ... درست وماتت حُبُّه لم يدرس
ما اليأس منك على التَّصبُّر حاملي ... أيأسْتني فكأنَّني لم أيـأس
لمَّا ذهبتَ بكُلِّ حُسن أصبحت ... نفسي تُعاني شجو كلِّ الأنفس

ومنهم ابراهيم بن عبد الله النميري، كتب في دولة ابي الحسن، وله شعر نفيس منه قوله :

لي المدح يروى منذ كنت وانما ... تصورت مدحا للورى وثناء
ومالي هجاء فأعجبن لشاعر ... وكاتب سر لا يقيم هجاء

ثم طويت صحائف أيام أبي الحسن، ونشرت لولده أبي عنان بنود اعلامه، فكانت أيامه من أجلِّ أيام هذه الدولة التي خلدت الأعمال الجليلة والآثار الجميلة، وسننقل في ترجمته نتفاً من شعره.

وفي دولة أبي عنان هذا وفد الى فاس شاعر الدُّنيا، لسان الدين ابن الخطيب، وله فيه القصائد السيارة.

ثم جاءت دولة أبي سالم ابراهيم بن أبي الحسن فكانت أيام الأدب فيها خير أيام اخرجت لعشاقه، اذ في أيامه ورد ابن الخطيب ثانيا مع سلطانه ابن الأحمر مخلوعين، وصدر من ابن الخطيب في هذه المرة من الأشعار اين ما حل من بقاع المغرب مارسمه له التاريخ في صحائفه الذهبية.

ومما تفتخر به أيام أبي سالم اشتمالها على مؤرخ الاسلام وفيلسوفه، أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون، اذ كان عينا من أعيان كتابه، ومن شعره القصيدة الميلادية التي يقول في مطلعها.

أسرفن في هجري وفي تعذيبي ... وأطلن موقف عبرتي وغريبي
وابين يوم البين وقفة ساعة ... لوداع مشغوف الفؤاد كئيب

ومن شعرائه ايضا، أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري، من أهل مالقة. فمن شعره قصيدة طويلة أنشأها لتكتب في احدى منتزهات أميره، هذا مطلعها :

هذا محلُّ المنى بالأمن مغمورُ ... من حلَّه فهو بالآمال محبُور
مأوى النَّعيم به ماشئت من ترفٍ ... تهوى محاسنهُ الولدان والحُورُ

الى ان قال

هذي مصانعُ مولانا التي جمعت ... شمل السُّرور وأمرُ السَّعد مأمور
وهذه القُبَّة الغرَّاء ما نظرت ... لشكلها العينُ إلَّا عزَّ تنظيرُ
ولا يُصوِّرها في الفهم ذو فكرٍ ... إلَّا ومنه تكلَّ الحُسن تصويرُ

ولما هصرت المنون غصن أبي سالم المرطيب، وقفت حركة الأدب في أيام المُتولِّيين بعده، وهما تاشفين الموسوس بن أبي الحسن، والمتوكل أبو زيان محمد بن أبي عبد الرحمن بن عبد الحق، قدر جلوس الخطيب، وذلك ريثما ظهر أبو فارس عبد العزيز بن أبي الحسن الذي انعش دولة بني مرين بعد تلاشيها، وأعاد اليها شبابها بعد هرمها وتقاضيها، وله شعر ستثبته له في ترجمته.

ولما ذهب لمقره الأخير، درج بعده عدة ملوك لم يؤثر عنهم في ذلك الباب خبر، ولا وقف لهم فيه على رسم أو أثر، الى ان اشرقت أيام أبي الحسن بن أبي سالم، فأرثنا بصيصا من نوره، واسمعتنا تغريد طيوره، وسننقل في ترجمته نُتفاً من شعره، وشعر شاعره ابي الحسن علي بن الوزير لسان الدين بن الخطيب.

ثم مرت أيام أبي عامر عبد الله بن أبي العباس بن أبي سالم، وجاءت دولة أخيه أبي سعيد عثمان، فيها نبغ شعراء مجيدون، من بيت بني القبائلي، الذين تولوا[33] الحجابة سنين طويلة، وسنترجم منهم من وقفنا له على اثر نفيس.

ثم اذن في هذه الدولة مؤذن الرحيل، وبكت عليهم الأيام والليالي بكاء عويل، فتولى بعد أبي سعيد ولده عبد الحق الذي هو اطولهم مدة، واعظمهم محنة وشدة.

ومن يده أخذ صولجان الملك الوطاسيون، الذين لم ير المغرب اقبح من أيامهم، اذ فيها انطمست معالم الأدب، وكثر سفك الدماء، وتعدد الثوار، وصار الأمر الى شبه الحالة التي وصف بها ابن الخطيب امراء الأندلس بقوله :

حتَّى إذا سِلكُ الخلافة انتثر ... وذهب العينُ جميعاً والأثـر
قام بكـلِّ بُقعـةٍ ملـيكُ ... وصاح فوق كلِّ غُصنٍ ديكُ

ولما لم تسعهم دائرة الإمكان، ودخلوا في خبر كان، ظهر بعدهم على مسرح[34] الملك الأشراف السعديون، فكان همُّ ملوكهم الأوَّلين قطع دابر الوطاسيين، الذين جرت لهم معهم وقائع وحروب شديدة.

ولما افضى الأمر الى أبي عبد الله الشيخ بن أبي عبد الله القائم، التفت الى إصلاح الدولة، ووضع تراتيبها، وكان فقيهاً أديباً، متفننا حافظا لمقطعات عديدة من الشعر، فانتعشت روح الأدب في أيامه وأيام ولده بعده الغالب بالله[35].

وفيها نبغ ابن أخ الغالب بالله، ووزيره، وهو أبو عبد الله محمد بن عبد القادر بن محمد الشيخ، وستأتي ترجمته.

وفي هذه الدولة ايضا نبغ الشريف الأديب البارع أبو محمد عبد الواحد بن أحمد الشريف السجلماسي، وكان كاتبا للوزير محمد بن عبد القادر بن الشيخ المتقدم آنفا، ومن شعره، وقد كان في بعض الأسفار مع مخدومه، وارسلت السماء بغيثها، وأنشد[36] الوزير المذكور

لله أشكو[37] غدات السَّفح إذ ركضت ... أيدي المطايا وحادي الرَّبع يحدونا

فقال الشريف المذكور :

والغيم في الأفق قد أرخى ذوائبه — بأسهم الودق لا ينفكُّ يرمينا

فقال الوزير :

حتّى استوى الماء والآكام واستترت — معالم الرُّشد لا طريق[38] يهدينا
فظلّت الخيل في الأمواج سابحةً — سبح السلاحف نحو الدّار يهوينا

فقال الشريف :

والنّفس في قلق لين مالقها — والشّوق يحلو[39] بنا والحال يُقصينا

فقال الوبر :

كأنّنا لم نبت والوصل ثالثنا — حتّى غدا الطّير فوق الغُصن يبكينا

ومن النّابغين في هذا العصر، أبو العباس الزموري، وستأتي ترجمته. والسلطان أبو عبد الله محمد المتوكل بن الغالب المذكور، ومن شعره :

ساروا فسار فؤادي اثر ظعنهم — وخلفوني نحيف الجسم حيرانا
لا افتر ثغر الثرى من بعد بينهم — ولاسقى هاطل ورداً وريحانا

ودالت الدولة لعمه ابي مروان عبد المالك، فكانت أيامه أيام كفاح وجلاد، آونة لاخماد الثوار، وأخرى في مقابلة سيل استعمار البرتقاليين[40]، الذين كانوا استطابوا[41] العيش في سواحل هذا القطر، وقد ختمت انفاس هذا الأمير مع أفول نجمهم، بواقعة وادي المخازن، الشهيرة في كتب التاريخ.

وطلع اذ ذاك في أفق المجد والأدب نجم واسطة عقد الدولة السعدية، أبو العباس المنصور، الذي نؤخر الكلام على آثاره الأدبية، الى أن نشيد حصن ترجمته فيما يأتي، وانما نلمع هنا الى نبذ مما بلغه الأدب في دولته.

لا يجهل احد منكم أيها السادات ما بلغه المغرب الأقصى في عهد هذا الملك الميمون النقيبة، من سمو المنزلة الأدبية التي كان يفاخر بها الغرب الشرق، ويباهي، فقد اصبح ذلك من الأمور المعلومة.

وقد أطلعت سماء دولته بدوراً نيرات، ونجوما زواهر، أضاءوا[42] جبين الأدب، ونشروا بنوده واعلامه، فمنهم الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن علي الهوزالي المعروف بالتابغة، الذي يقول في تهنية المنصور، لما أبل من مرض ملحوف :

تردّى أذى من سقمك البرُّ والبحرُ — لشكْوى جسمك الشّمس والبدر
وبات الهُدى خوفاً عليك مُسهّداً — وأصبح مذعور الفؤاد النّدى الغمر
فلما أعاد الله صحّتك التي — أفاق بها من غمّه البدو والحضر
تراءت لنا الدُّنيا بزينة حُسنها — وعاد إلى إبّانه ذلك[43] البشْرُ

الى آخر ما قال. ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي الفشتالي، ومن شعره وقد اوقع المنصور بسبتة، وكادان يفتحها :

هذه سبتـــــةٌ تُزفّ عروسا — نحو ناديك في شباب قشيب
وهي تُبشرى وأنت كُفْؤُ اللواتي — كافأت بعلها بفتـــح قريب

ومنهم أبو العباس احمد بن القاضي صاحب الجذوة، وستأتي ترجمته. ومنهم أبو فارس عبد العزيز الفشتالي، وقد طوق جيد هذه الدولة من فلائد المنن ما أبقى له الصيت الجميل، والذكر الحسن، فمن شعره قوله يهني المنصور بفتح اصيلا[44].

بكْر الفُتوح لكمْ عجّلْ بشرْها — وافترّ عن شنَب المسرّة ثغْرُها
وعقيلة الأمصار وهْي أصيلةٌ — أنت العزيز لذا أطاعك مصرها

وأتى[45] بها الفتح المبين يزفُّها ... لكم وليس سوى قبولك مهرها
شغفت بيدرك واستباك حنينها ... فتجمَّعت بكم حُنينٌ وبدرها
كانت ليالي الكفر فيها دمَّلا ... وبعصرك الأقوى تبين عجزها

وله في قصر البديع، كل معنى بديع، وناهيك بمرتبة من يقول فيه مخدومه المنصور الفشتالي: نفتخر به على ملوك الأرض، ونباري به نسان الدين بن الخطيب. ومنهم الوزير الأديب أبو الحسن علي بن منصور الشيظمي، وله في مخدومه المنصور قصائد طنانة، ومدح غزير، من شعره ما نقش على أحد أبواب قصر البديع :

بابٌ أتى كبراعة استهلال ... وكأنما القصر القصيد التالي
ولذلك سُمِّي بالبديع وجاء بالإ ... غراق والتَّجنيس والإيغال
وأتى التَّمام ففلت في تاريخه ... بيتاً بلا عقدٍ ولا إشكال
صرحٌ على تقوى من الله ابتنى ... في طالع للسَّعد والإقبال

ومنهم القاضي أبو القاسم بن علي الشاطبي، وقفتُ له على قصيدة ميلادية من أعلا طبقات البلاغة مطلعها :

ما بال طَيْفك لا يزور لمامًا ... ويُمنحني الأحشى ضربْتِ خيامًا
أيعيش فيك عوادٌ لي لسلْوهم ... وأموتُ فيك صَبَابةً وغرامًا
وتبيحُ نهْرك سائلًا من أدْمُعي ... أو ليس نهْرُ السائلين حراما
ما ذقت ماء لمَاك في سنة الكرى ... إلَّا انتبهتُ فكان لي أحْلاما

وهي طويلة، الى غير هؤلاء ممن زهى بهم روض الأدب واثمر جناه وأخصب.

وقد وقفت دواليب الحركة الأدبية شيئاما[46] في دولة ولده زيدان، اذ لم اتسنم للشعر رائحة في أيامه، حتى إن الأديب أبا فارس الفشتالي المتقدم، الذي استكتبه بعد وفاة[47] والده، لم يحرك ساكناً[48]، ولا أثار كامناً، وما ذلك إلَّا لأنَّ دولة زيدان اشتهرت بكثرة الثوار المتطلِّبين لتسلُّم ذروة الملك. وغاية ما عثرت عليه في ذلك التاريخ هو ما جادت به فكرة الأديب المكلاتي في مخاطبة القاضي أبي الحسن علي بن عمران السلاسي، لما سجنه زيدان، وسيأتي ذلك في ترجمتهما.

على ان لزيدان نفسه شعراً لابأس به منه قوله :

مررتُ بقبْر هامد وسط روْضَةٍ ... عليه من النُّوار مثل النَّمارق
فقلتُ لمن هذا فقالوا[49] بذلَّةٍ ... ترحَّم عليه إنَّه قبْرُ عاشق

وبموت زيدان انتثر عقد الدولة السعدية، وصار يتقلص ظلها من ربوع المغرب شيئا فشيئا، ناهيك بدولة في آخر رمق من حياتها، يتألب عليها الرجل الصالح، أبو عبد الله العياشي، وينفخ في بوق الجهاد، لإيقاظ الهمم وتحريكها. وأهل الدلاء الذين طبقت الأرض اذ ذاك شهرةُ زاويتهم، والصنديد البطل الذي كان يلقبه الدلاءيون بالعقاب، الأشهب مولاي محمد بن مولاي الشريف بن علي العلوي الحسني. لاجرم ان الدولة لو كانت في شبابها لأصلتها هذه الحوادث، فكيف بها وهي في حال الشيخوخة والهرم. وعصر كهذا يستحيل ان تظهر فيه للأدب صولة، أو يكون له في ميادين الترقي جولة.

وها هنا نودع دولة الاشراف التي تفتحت عن ازهار الأدب فيها الأكمام، وركضت فرسان الأفكار في مجال النثر منها والنَّظام، ثم دخلت في خبر كان، واسدل عليها ستار النسيان، وسبحان من تنزه ملكه عن طوارق الحدثان.

ثم كانت عاقبة تلك المشاجرات خلوص حكم البلاد لساداتنا الأشراف العلويين، باستيصال شافة السعديين، وموت أبي عبد الله العياشي أولا، ثم بفتح مولانا الرشيد لزاوية الدلاء، وتعريب أهلها عنها ثانيا.

وأنت خبير بأن الدول في أوائل ظهورها لا يكون همها الأكبر إلا في تأسيس ملكها، وتثبيت دعائمه على أساس متين، حتى اذا ما شمخ بناؤه، وتشيدت أركانه، ردت الوجهة حينئذ الى موجودة الأدب فاحيتها، والى عاطل اجيادها فحلتها، لذلك لا نعجب اذا ما رأينا هممَ الملوك الأولين من هذه الدولة الشريفة كانت مصروفة لتطهير المغرب من دون الناقمين، وقمع ثورة الثائرين. على أن هذا إنما هو بالنسبة للدولة مولاي محمد بن الشريف أول ملوكها، أما دولة أخيه المولى الرشيد، فقد كانت رياضها زاهرة برجال الدلاء، وحيث أن جل افرادهم أقبروا بهذه الحضرة[50]، وكانوا آتين على شريطة مسامرتنا، فسنلم باخبارهم عندما نترجم من أنجبت فاس من الشعراء.

ومن أجلّ من تفخر به الدولة الرشيدية الامامُ العلامة الشهير أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي، فقد أقام للأدب سوقا نافقة، وخدمه مخلصا في خدمته صادقا، فمن آثاره الخالدة قصيدته الرائية التي رثى بها أهل الدلاء في نكبة تغريبهم، وطمس معالم زاويتهم. يقول في مطلعها:

أكلّف جفْن العين أن يشُر الدّرّا ... فيأبى ويعْتاض العقيقُ بها جمْرا

وشعره بين الناس شهير، وديوانه مطبوع، فلا نطيل بنقل شيء منه. أما دولة أخيه مولانا اسماعيل فقد كانت دولة جد وعمل، وكانت اغصان الأدب مثمرة فيها أيضا برجال الدلاء، اذ هو الذي استرجعهم من تلمسان التي كان المولى الرشيد نفاهم اليها.

ومن الأدباء الذين اشتملت عليهم دولته، العلامة الرحالُ الشهير أبو سالم العياشي، وقد اشتملت رحلته على شيء كثير من شعره النفيس، فليرجع إليها من أراد. ومنهم العلامةُ الشهير القاضي أبو مروان عبد المالك التاجموعتي، ومن شعره القصيدة الغراء، التي هنأ بها شيخه ابا عبد الله سيدي محمد بن ناصر. قال في مطلعها:

بسمت ثُغور الزّهر بالبُشْر ... وجلّت عبوس الرّوض بالبشْر
وأنّم طيفٌ من سُعادٍ بعدما ... أصمّت فُؤاد الصّبّ بالهجـــر
وتعلّلت نفسُ العليل بوجْدها ... بسُرى الخيال[51] وكان لا يسري

وهي طويلة، نقلها العلامة الناصري في كتابه طلعة المشتري. ومنهم الأديب الأشهر أبو العباس أحمد بن عبد القادر التاستاوتي، احد حفدة سيدي محمد بن مبارك، دفين تاستاوت. ومن شعره قصيدتان بديعتان، إحداهما لامية في مدح الشيخ ابن ناصر، مطلعها:

قِف ساعةً بين الغُوير فزيلل ... واعطِف بمُنعطف الرُّسوم الهُمّل
واجتزْ من الطّلل الذي بجواره ... آثارُ قومٍ في المَهيّة كُمّل

والأخرى دالية، ومطلعها:

عرّج بأطْلال الأحبّة واقصد ... آثارهم يوماً لعلّك تهْتدي

وهي في مدح النبي عليه السلام، وكلاهما عارض به دالية اليوسي الشهيرة، وقد نقل هاتين القصيدتين على طولهما في طلعة المشتري، ايضا الى غيرهم، ممن لا يسع الوقت تتبع اخبارهم، وتحلية الآذان[48] بحلية آثارهم. ولما نام هذا الملك بمقره الأخير ترك المغرب الذي انفق كل نفيس في سبيل ترقيته، وتطهيره من دنس الثوار، فتربع على دسته العبيد الذين مدُّوا له يد الإفساد، وصاروا يقدمون من أولاده من شاءوا[52]. ويؤخرون من سوّلت لهم انفسهم، وهواهم.

ولو كنت مؤرخ تلك الأيام لما اهتديت في ظلام ليلها الحالك، ولعميت عليّ الأنباءُ والمسالك، اذ جميع المجهودات التي بذلها المولى اسماعيل في اصلاحه سنين حولا قضى عليها في بضعة أعوام أولائك المفسدون. ومحال ان يظهر لِسننا الأدب في تلك الفتن نورٌ أو ترين بقلائده مع تلك الملمات نحورٌ.

نعم، إن الدلاءين الذين رفعوا في أوائل هذه الدولة لمشعر رايته، وادركوا[52] منه أقصاه وغايته، كان منهم على قيد الحياة في ذلك العصر بدورٌ أهلة، وسادات أجلة، لاكنهم لم يُسمعونا من اغانيهم لحنا، ولا نبسوا ببنت شفة في وصف ذلك المغنى، وانما كان يلمع في تلك الآونة بصبيص من نوره في الزاوية الناصرية بدرعة، حيث كانت إذ ذاك محط آمال المتعطشين للعلوم والمعارف، وأشهرُ أدبائها حينئذ أبو العباس أحمد بن موسى بن محمد بن الشيخ سيدي محمد بن ناصر، ومن شعره في مدح أخيه جعفر القائم اذ ذاك بأمر الزاوية قوله:

معاني الحسن تظهر في المغاني ورونقــه يجدد في المبـــاني

ولم تنجل تلك الظلمة الا بعد طلوع شمس واسطة عقد الدولة العلوية، ومحيي ما درس من آثارها، سيدي محمد بن عبد الله فنفقت في أيامه سلع المعارف، واخضر نبت الأدب الذي كان أتى عليه سيل العبيد الجارف، وقد كان يتتبع في تراتيب دولته خُطَى[53] أبي العباس المنصور ويحو[54] منحاه في الورد والصدور، ولم تمض الا مدة يسيرة حتى عاد للأدب شبابُه، وانفتحت في وجه عشاقه أبوابُه، وحيث كان كل من وقفت له على آثار أدبية في أيامه من أدباء هذه العاصمة، فقد أثَرْتُ تراجمهم الى أن نتكلم على شعرائها.

غير أنه لا يسعني أن أغض الطرف عن شاعر نبغ في تلك الآونة، وهو الأديب أبو حامد العربي بن عبد الله بن أبي يحيى المساري، صاحب الأرجوزة الشهيرة، التي وضع عليها شيخنا العلامة أبو العباس البلغيثي[55] شرحه الابتهاج، وقد نقل في أول شرحه من شعره ما يعجب ويطرب.

ومثل ذلك يقال في دولة ولده المولى يزيد المتولي بعده.

أما دولة أخيه، مولانا سليمان، فقد كانت زاهية بعلماء أجلة، وبدور أهلة، وسأترجم من وقفت عليه من الشعراء في أيامه.

ثم أقبلتْ دولة ابن أخيه، مولانا عبد الرحمن، فترعرعت فيها أغصان الأدب، ونمت، واخذت رياضُهُ زخرفها وازيَّنَتْ، ومن أعاظم الشعراء الذين تفتخر بهم ايامه، العلامة المؤرخ، الشاعر المفلق، أبو عبد الله محمد بن أحمد أكنسوس، ومن شعره المرثية البديعة التي رثى بها الأمير المذكور:

هذي الحياةُ شبيهةُ الأحـــلامِ ما النَّاس إن حقَّقت غير نيام
حسبُ الفتى إن كان يعقل أن يرى منــه لآدمَ رُؤيــة استعــلام
فيرى بداية كُلِّ حتَّى تنتهي أبداً وإن طال المدى تمام
والنَّفس من حُجُب الهوى في غفلةٍ عمَّا يُراد بها من الأحكام
أو ليس يكفي ما يرى مُتعاقباً بين الورى من سَطْوة الأيَّام
من لم يُصَب في نفسه فمُصابهُ بحبيبــهِ حُكْمــاً على إلــزام
بعد الشَّبيبة شيبةٌ يخشى لها ذو صِحَّةٍ أن يُبْتَلى بسقَام
دارٌ أريد بها العُبور لغيرها ويظُنُّها المغــرور دار مقــام
منع البقاء بها تخالُفُ حالها وتكــرُّرُ الإشراق والإظـــلام
لو كان ينجُو من رداها مالكٌ في كثرة الأنصار والحُـــدَّام
لنجا أميرُ المؤمنين ومَن غَدَا أعْلا مُلُوك الأرض نجْل هَشَام

ومنهم الأديب المجيد أبو محمد عبد الله الديماني، الذي يقول في تهنية الأمير المذكور عند طمس معالم زاوية الشرادي:

بشرى تقر ب عين الايمــان كالوصل ينسخ دولة الهجــران
جاد الزمان بها على مقداركم فتقاصرت عنها خطا الأذهان

الى أن يقول مخاطبا للأمير:

يامالكاً ملأ الوُجُود محاسناً لا تختفي عن أعْيُن العُمْيَان

أجريت بين المُعْتفين مكارماً يسْلُو الغريبُ بها عن الأوطان

وهي أطول من هذا.

ثم جاءت دولة ولده سيدي محمد، فزاد نور الأدب اتلاقا، وشمسه اشراقا، فمن الشعراء الذين كان لهم التبريز فيه، أبو عبد الله اكسوس، المتقدم، والعلامة القاضي أبو عبد الله محمد الطيب بن محمد الرواني. ومن شعره في تهنية الخليفة اذ ذاك، مولانا الحسن، بإبلال والده سيدي محمد من مرض قوله من قصيدة :

غرام يفوت الخدَّ والوصف والشَّرحا ولحظ جرى دما من أحشى[56] الجرحا
وتبريحُ شوق أرَّق العين فهي من دواعي الهوى ما تعرف الليل والصُّبحا

ومنهم الأديب السيد المفضل افيلال، ومن شعره القصيدة التي يرثي فيها الثغر التطواني، لما احتله الجيوش الاسبانية زمن السلطان سيدي محمد :

يا دهر قُل لي على مه كسَّرت جمع السَّلامه
نصَّبتـه للدَّواهـي ولم تُخف من مَلامه
خفَّضْت قدر مقامٍ للرَّفع كان عَلامَـه

أما أيام ولده مولانا الحسن، فقد كانت خير أيام اخرجت للناس، وقد كان للأدب فيها أسواق عامرة، فمن الأدباء الذين اطلعهم الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن ناصر حركات السلاوي. ومن شعره في تهنية السلطان المذكور إثر الحادثة التي جرت له مع أهل فاس، قوله من قصيدة مطلعها :

لله يا تلك التي تهوى[57] الفتا لا تنقضي ما كان صبري قد بنا
كلَّا وقد هيَّجْت منِّي لوعةً قد أوشكت في مُهْجتي أن تهدنا

الى أن قال مشيراً لتلك الواقعة

هذا وما صبَّحْتهم بكـريهةٍ حتَّى جنا جهْلا بفضلك من جنا
شربوا[58] كؤوس[59] الحتف لولا أنَّها أبقت عليهم رأفةٌ وتحنُّـنا
وأتاك أرباب البصائـر قَوْلُا بألْا تؤاخذنا بزلَّـة غيرنـا[60]

ومنهم موقت ثغر سلا في ذلك العصر، أبو العلاء ادريس الجعيدي ومن شعره فيه :

أسالم دهْري في المرام وفي القصد فينقضُّ ما أبرمت للصُّلح من عقد
وأسأله الرَّحمى فيُبدي ازورارَهُ ونفرتُهُ عنِّي فيا عُظْم ما يُبدي[61]

ومنهم العلامة المؤرخ المصلح الشهير، أبو العباس الناصري، ومن شعره :

قلب كواه من الثوى مقباس فغدا به الوسواس والخنـاس
وتحول جسم يشتكي ألم الضنى وجوى به تتصاعد الأنفـاس

الى غير هؤلاء ممن سنُلِمُّ بتراجمهم فيما بعد.

أما دولة ولديه بعده، مولانا عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ، فقد بقيت للأدب في أيامهما بقية، وجل الأدباء الموجودين اليوم نبغوا في عصرهما.

أما دولة سلطان العصر وإمامه الذي أورد صادي الأدب بعد أوامه، أميننا المحبوب المفدي بالأرواح والقلوب، أبي المحاسن مولانا يوسف أبقى الله جيوش عزه منصورة، ورايات سعوده منشورة، فقد رأيتم بعينكم النهضة التي نهضها هذا القطر المصون في أيامه، وأبصرتم بلوغ نصاب الأدب الى تمامه، وإنها لنهضة جديرة بالاعجاب، ويتفاءل بها خيراً من يهمه أمر وطنه. جديرة بالاعجاب، ويتفاءل بها خيراً من يهمه أمر وطنه. ولا

حاجة بي الى تحلية مسامعكم الكريمة بالدرر الغوالي التي يرصع بها جيد الأدب أدباء العدوتين، الذين كانوا، والحق يقال، من العوامل القوية في تلك النهضة المباركة، اذ الصحف السيارة تنشر لهم كل يوم ما يعجب ويروق. أما أدباء عاصمتنا فسنتحلى بآثارهم هذه المسامرة.

سادتي هذه أطوار الشعر وتقلباته بهذا القطر الذي تقلنا ارضه وتظلنا سماؤه، أتيتُ بها كفذلكة تاريخية له، مستنتجا ذلك من ثنايا كتب التاريخ التي تحفظ للمحسن احسانه، وتسجل على المسيء اساءته. وقد وضعت اللبنة الأولى في أساس تاريخ الشعر، فعسى أن يأتي من هو اغزر منه مادة، وأكثر اطلاعا، فيشيد صرحه الشامخ، وما ذلك على همة من يقدر خدمة وطنه حق قدرها بعزيز.

هوامش :

1 ــ الياء بغير همزة.
2 ــ ألف ما بعد الواو محذوفة.
3 ــ في البداية لام ثالثة.
4 ــ ألف لام التعريف محذوفة.
5 ــ الياء في السطر.
6 ــ الدُّماء : بقية الروح.
7 ــ في الأصل : كامنن.
8 ــ ألف ما بعد الواو محذوفة.
9 ــ حذف ضمير المتكلم « الناء » في نهاية البيت الشعري أكثر من مرة.
10 ــ الياء في السطر.
11 ــ الواو غير مهموزة.
12 ــ الياء غير مهموزة.
13 ــ الدال معجمة.
14 ــ الدال معجمة.
15 ــ توجد الفاء بدل القاف.
16 ــ الياء بغير همزة.
17 ــ واو المد محذوفة.
18 ــ كذا كتبت خسرة.
19 ــ الياء بغير همزة.
20 ــ توجد الفاء بدل قاف.
21 ــ ألف ما بعد الواو محذوفة.
22 ــ ألف « قدراً » محذوفة.
23 ــ في الأصل « اخبر ».
24 ــ زيادة الألف بعد الواو.
25 ــ في الأصل « أحدن ».
26 ــ ألف ما بعد الواو محذوفة.
27 ــ في الأصل « السماكين ».
28 ــ توجد الثاء بدل الفاء.
29 ــ هو أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجرّاوي، نسبة إلى قبيلة جراوة، ويقال لها جروان أيضاً.
30 ــ حذفت الهمزة.
31 . 32 ــ زيادة الألف بعد الواو.
33 ــ ألف ما بعد الواو محذوفة.
34 ــ في الأصل « مرسح ».